جرائم الأطفال

كثر الاهتمام بجرائم الصبيان فى السنين الأخيرة للعلاقة بين أخلاق الصبي وأخلاق الرجل. فان الصبي المجرم يتخذ اسلوبا من العيش أو الكسب عن طريق التشرد أو السرقة أو التكفف أو الغش ينمو معه بالسنين ، فاذا صار رجلا استقر هذا الأسلوب وأصبح عادته واتجاهه وموقفه من الحياة الاجتماعية ، فهو يمارس هذه الجرائم مع جرأة وتدبير لم يكن يعرفهما وهو صبي ، وهو كلما ازداد خبرة بالدنيا استخدم هـذه الخبرة فى زيادة دربته ومهارته فى الجريمة .

ولذلك يتجه الدرس لمعالجة الجرائم الى درس البيئة الأولى للصبيان ، أى العائلة والمدينة والمدرسة وعمل الصبي وفراغه ، وقد كان بحث الجريمة يتجه قبل نحو أربعين أو خمسين عاما نحو درس الوراثة والزعم بأن هناك طرازا خاصا من المجرمين يمكن التعرف عليه بشكل الرأس أو حجمه أو برقة الملامح أو غلاظتها أو غير ذلك من سمات الجسم أو الرأس ، ولكن هـذا الرأى قد فند بدرس الجرائم وتعقب أصولها وبواعثها ، فان مما لاشـك فيه أن الأسرة التى يكون فيها أحد الأبوين مجرما ينشأ الطفل فيها وهو يرى أمام عينه هذه القدوة الحية فيتخذها أسلوبا للعيش .

بل هو عندما يجنح الى الجريمة لا يجد من هذين الأبوين رادعا . ثم هو عندما يسجن أحد أبويه يجد إهمالا ، فاذا تطوح نتيجة هذا الاهمال وقع بسهولة فى الجريمة . ولذلك يمكن أن نقول إن أبناء المجرمين مجرمون أيضا ليس بقوة الوراثة بل بقوة البيئة أى بالقدوة والتعليم والإهمال والفقر . وليس هناك طراز خاص للجرم الصغير . فاننا نجد الصبي النشيط الذى تلمع عيناه بالذكاء كما نجد الخامل المتراخى البليد . ونجد الملامح الوسيمة كما نجد الوجه الغليظ . فلا نستطيع أن نقول إن هناك طرازا خاصا للمجرمين صغارهم أم كبارهم . لأن الحقيقة أننا "نتكيف" بالوسط . وخاصة بالبيئة الأولى أيام الطفولة التى نتعلم فيها أسلوبا من العيش يلازمنا سائر حياتنا .

وقد قيل إن المجرمين يبدو عليهم نقص فى الذكاء أو أنهم تحت المستوى المتوسط العام للذكاء . وفى هذا القول بعض الحق ولكن هناك بينهم أيضا أفرادا يتجاوزن هذا المتوسط بل يبلغون درجة النبوغ . ومن المعقول أن يؤدى نقص الذكاء الى قلة الحيلة وتحقيق الآمال والرغبات بالطرق المشروعة فيعمد هذا الناقص الى طرق شاذة قد اصطلحنا على أن نسميها جرائم . ولكن هـذا النقص صغير القيمة جدا فى وزن الميول الاجرامية . وأهم منه الخلل العاطفى عند المجرمين . فان للعواطف اتزانا يتفق والحياة الصالحة فى المجتمع . فاذا اختلت تعرض صاحبها للجريمة . مثال ذلك أننا جميعا نغضب ونشتهى الطعام ولكل منا صورة معينة من كرامته ونحو ذلك . فاذا اختلت عواطف أحدنا نحو واحدة أو أكثر من هـذه الأشياء فانه يصير مجرما أو شاذا .

ومما يدعو إلى اختلال العواطف أن يكون بالجسم نقصا مولودا أو مكتسبا يجعل الناقص يشعر بالهوان . وهو ما يسمى عند السيكلوجيين "مركب النقص" فإن الإحساس هنا يرهف فى كل ما يمس الكرامة . أو قد تختل العواطف لاعتلال الغدة الصماء أو لاعتـلال الصحة عامة . ففى كل هذه الحالات لا يستجيب الإنسان للوسط الاستجابة التى تنتظر من رجل سليم ويقل الانسجام بينه وبين المجتمع فينشذ أو ينشز حتى يقع فى الإجرام .

والعادة أن الصبى الذى ينشأ فى حضن أبوين مستقيمين يجد منهما النصيحة ثم القدوة ثم الرادع . فهما يحبان الاستقامة ويطلبانها فى ابنهما . فإذا وجدا منه انحرافا نصحاه . ثم هو لا شك يقتدى بسلوكهما وينشأ على غرارهما . فإذا لم تجد النصيحة والقدوة فإن مثل هذين الأبوين لا يتأخران عن ردعه بالعصـا . وعلى أى حال نجـد أن النتيجة أن الصبى سيأخذ بأخلاقهما فى الاستقامة . ويحـدث نقيض هـذا فى الصبى الذى ينشأ بين أبوين مجرمين أو يميل أحدهما إلى الإجرام .

ولكن ليس من الضرورى أن يجرم الأبوان أو أحدهما لكى ينشأ الصبى على الجريمة . فإن الصبى قاصر يحتاج إلى الإرشاد وهو ينظر إلى من يكبرونه نظرة الاحترام ويسمع لنصيحتهم ويعمل بها . فإذا فقد هذا الإرشاد وهذه النصيحة فإنه يعتمد على نفسه فيخطئ هنا وهناك . وقد لا يجد من يقوم سلوكه . وهذا هو الغالب فى العائلة التى فشا فيها الشقاق بين الزوجين

أو التى هجر فيها الزوج زوجته إما بالإهمال و إما بالطلاق . فإن الصبى لا يجد من يعنى به ويرشده فيضل . ومعظم الصبيان فى الإصلاحيات قد نشأ فى عائلة قد فشا فيها الطلاق أو هجر الزوج فيها زوجته .

ثم هناك الشارع والمدينة، فان بعض الأحياء يكثر فيها أبناء الفقراء الذين تحملهم الفاقة على التصعلك ، فهنا صبى قد تعلم السؤال والتكفف وادعاء الجوع ، وهناك آخر يخرج من البيت قاصدا إلى المدرسة فيقضى وقته فى التسكع و يعود فى ميعاد الغداء إلى بيته كأنه قد عاد من المدرسة ، وهناك مؤامرات صغيرة يعقدها الصبيان فى البيئات الفقيرة لكى يسرقوا شيئا تافها أو لكى يهجموا على حديقة ، ففى هذه البيئات يتعلم الصبى أساوبا جديدا من السلوك يشق عليه بعد ذلك أن يتخلص منه .

فاذا أردنا أن نتقى جرائم الصغار — وباتقائها نتقى جرائم الكبار — فانه يجب قبل كل شىء أن نعمد إلى ترقية الوسط العائلى ، فان الزوج الجائع المتعطل أو السكير المعربد يخلق جوّا سيئا فى العائلة كله مغاضبة ونكدا وبكاء وكراهية ، والصبى الناشئ فى هذا الوسط يكرهه وقد يفرّ منه أو هو يؤثر عليه الشارع وما فيه من تسلية مع صبيان آخرين يفتحون أمامه أبواب الفساد ، فتعطل الزوج من أقوى الأسباب لشرود الصبيان و إجرامهم ، لأن الزوجة تبرم بالزوج المتعطل و يكثر الشجار بينهما ، وسوء الطعام أوقاته تجعل الصبى يجنح إلى الشارع .

وكذلك المدرسة السيئة التى لا يحبها الصبى ، فانها تجعله يشرد فى الشوارع و يتعرف إلى زملاء السوء و يدبر ذهنه الصغير طرق المواربة للهرب من سؤال أبويه عن دروسه ، وكذلك الشارع السيء .

فمكافحة الإجرام فى الصبيان تقتضى :

(أولا) ترقية العائلة وضمان العمل والكسب للأب .

(ثانيا) مكافحة الطلاق .

(ثالثا) السكنى فى بيئة حسنة حيث يعيش الصبيان المستقيمون .

(رابعا) يجب أن تغرى المدرسة الصبى ولا تصده بنظام قاس أو دروس مرهقة .

(خامسا) يجب إيجاد أندية للصبيان يقضون فيها فراغهم تحت إرشاد معلمين .